آليات الاتساق المعجميّ وتوظيفها في تجليات عاطفة الأخوة في رثاء الشريف المرتضى

طالبة الدكتوراه عفت مرداني
قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة أصفهان ـ إيران
سمية حسنعليان (الكاتبة المسؤولة)
أستاذ مشارك ـ قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة أصفهان ـ إيران
shassanalian@yahoo.com
الدكتور حميد أحمديان
أستاذ مشارك ـ قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة أصفهان ـ إيران
عبدالكريم جديع نعمة النفاخ
أستاذ دكتور - قسم اللغة العربية ـ كلية التربية الأساسية ـ جامعة الكوفة ـ العراق

The Mechanism of Lexical Cohesion and its Application in the Expression of Brotherhood Affection in the Praise of Sharif Morteza

Effet Mardani
PhD Candidate, Department of Arabic Language and Literature, University of Isfahan، Iran
Somayeh Hasanalian (responsible writer)
Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, University of Isfahan, Iran
Hamid Ahmadian
Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, University of Isfahan, Iran
Abdolkarim Jadi' Ne'matolnafakh
Professor Dr., Department of Arabic Language and Literature, College of Basic Education, University of Kufa, Iraq

الملخص:-

يعتبر التماسك النصيّ من الاتجاهات الحديثة في دراسة النصوص اللغوية بوصفه أحد الأشكال التي تسهم في تماسك النصّ وربط أجزائه مع بعضها البعض، وذلك من خلال الاستعانة بالأدوات التي تحقق هذا الترابط على مستوى النصّ. يعدّ الاتساق المعجميّ مظهراً من مظاهره فهو يؤدّي دوراً هامّاً في تحقق الترابط والتماسك بين عناصر النصّ وتفصل بنياتها، ويتحقّق ذلك الربط بواسطة تلك العلاقات المعجمية القائمة بين مفردات النص وكذلك الوحدات اللغوية المكونة له، وتتجسّد تلك العلاقات عن طريق عنصرين هما: التكرار والتضام. البحث موضوع الاتساق المعجميّ ودراسة توظيفه في تجليات العاطفة في رثاء الشريف المرتضى لأخيه الشريف الرضي، على وفق المنهج الوصفيّ التحليليّ لتسليط الضوء على آليات الاتساق ومدي إسهامها في تأسيس اتساق الرثاء وتحقيق الترابط والتلاحم بين أجزائه عند الشاعر. واتضح لنا من خلال تحليل مظاهر الاّتساق في رثاء الشريف المرتضى في ضوء علم اللغة النصيّ أنّ هناك مجموعة من العناصر قد تضافرت لتشكيل ظاهرة الرثاء عنده وتشييد بنيتها الدلاليّة، ولذا كان رثاؤه مترابطاً متماسكاً، فالشاعر قد سمح لرثائه أن يتطاير في سماء الأخيلة ويتلاحم مع الآليات الاتساقية المعجمية وهما التكرار والتضام ليلامس تلك العاطفة الأخويّة التي تنبع من أحاسيسه الصادقة ومشاعره الجياشة تجاه فقدان أخيه.

الكلمات المفتاحية: الإتساق المعجميّ، التكرار، التضامّ، الرثاء، الشريف المرتضى، الشريف الرضي.

Abstract:-

Textual Cohesion is a new approach to the recent text studies, which plays a role in connecting the text and creating a connection between its components, and this is due to the use of the mechanisms that make this connection in the text. Lexical cohesion is a kind of coherence that plays a significant role in achieving relations and the connection of the components of a text, and this relation is achieved through the lexical links between the words of the text and its constituent linguistic units. This connection is manifested by two elements: repetition and collocation. The present paper examines lexical cohesion and its application in the manifestation of emotion in the praise of Sharif Morteza in the absence of his brother Sharif Razi through a descriptive-analytic approach to discover the mechanism of coherence and its role in the relationship between this lamentation and the achievement of the relation and cohesion of the components of this ballade. From the analysis of the elements of coherence in the Sharif Morteza lamentation, it is clear that a series of elements help to form lamentation and its semantic structure, and hence his lamentation own is coherent and intertwined in a way that the poet lets his requiem to fly weave with lexical coherence, i.e. repetition and collocation to touch the brotherhood affection coming from his sincere feelings and sadness in the absence of his brother.

Key words: Lexical Cohesion, Repetition, Collocation, Lamentation, Sharif Morteza, Sharif Razi.

المقدمة:

يدعو الإسلام إلى بناء مجتمع تسوده المحبة والإخاء، إذ أكدت الشريعة الإسلامية في مواضع كثيرة على توثيق عري المحبة بين المسلمين وأهمية صلة الرحم التي تعدّ من الفرائض التي أمرنا الله سبحانه وتعالي بالحفاظ عليها، وهذا ما أكده القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء، ٤: ٣٦) فهذه الآية تكشف عن أهمية صلة الرحم فضلا عن العلاقات الأسرية، ولا شك في أنّ العاطفة تلعب دوراً هاماً في إرساء العلاقات بين الناس، بوصف العاطفة البوصلة التي تسهم في تقوية الروابط الأسرية والبشرية ففي ظلالها تبنى المجتمعات ويسودها الصفاء والسلام، ولذا على الإنسان أن يربي نفسه على العاطفة القوية والاهتمام الشديد بأحوال الآخرين، والتناصر والإخاء، إذ هذه الصفات هي مفتاح النجاح في الحركة تجاه السعادة والتعايش السلمي، فالعاطفة لها أهمية بالغة في الارتباط البشري، ((أما إذا اضمحلت فسيسود بين المؤمنين البرود والجمود؛ فلا يكاد يلتفت بعضهم إلى بعض، ولا يكادون يتآخون ويتناصرون ويتعاضدون، ويقع بينهم الكلام موقع العمل، والدنايا والسفاسف موقع المعالي والرفعة، والهمة الساقطة موقع الأخذ بالعزيمة والفوز بالغنيمة)) (الشريف، ٢٠٠١م: ١٢).

وتعدّ العلاقات الأسرية المبنية على العاطفة من أهم العلاقات التي تسهم في تكوين الشخصية، إذ تلعب العاطفة دوراً كبيراً في حياة الأسرة من جهة وتماسك المجتمع وقوّته من جهة أخرى. بوصف الأسرة ((هي المؤسسة الأولى التي تُصاغ فيها شخصية الفرد، ويتلقى فيها قيمه، ومبادئه الأولية، ولا تحقق الأسرة أهدافها إذا افتقرت للعاطفة، والمحبة، والشفقة، والرحمة)) (المشرف، ٢٠١٢م: ٦٤) ومن أهم العلاقات الأسرية علاقة الأبوة و الأمومة، فليس هناك من يقوم مقامهما في الحنان والود، ثم تأتي بعدها الأخوة. فهي من أقوي العلاقات وأقربها في الأسرة، لذا من الصعوبة بمكان أن ننكر أهمية عاطفة الأخوة؛ إذ إنها المادة الأساس في تكوين شخصية الإنسان، ومن أبرز وجوهها هي تجليات عاطفة الأخوة في شعر شاعرٍ تجاه أخيه الشاعر، لأن العمل الأدبي هو ((تعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية)) (سيد قطب، ٢٠٠٣م: ١١). فالشاعر يعبر عما يدور في نفسه من آمال وآلام وهموم

ويريد أن يصبغ كلامه بالعاطفة الحية وأن يبعث في كل شيء روح الوجدان البعيد الآفاق، فنراه يؤدّي دوره في نقل العواطف على الوجه الأكمل ويكشف لنا عن عاطفة صادقة وعميقة تجاه أخيه الشاعر. فإنّ الاهتمام بالعاطفة الكامنة وراء الشعر يفتح آفاقاً جديدة في النقد الأدبي تضيء دروب البحث أمام الباحثين، كما يساعدنا للتعرف على عواطفٍ لعبت دورا هاماً في فهم القصيدة وتأويل دلالاتها. لقد ركز كثير من الشعراء على إنشاد قصائد تشتمل على عاطفة الأخوة، منهم الاخوان الشاعران "الشريف الرضي" و"الشريف المرتضى". فقد نشأ الاخوان في أحضان أسرة عريقة علوية شريف النسب وإذ هما ينتسبان إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام وإنّهما كانا من الشعراء الكبار في عصرهما، وهذا ما أشارت له عبارات المؤرخين وتعليقاتهم إلى أنّ المرتضى كان ذكياً وطموحاً، مثابراً، محباً للعلم مؤثراً لمجالسة العلماء منذ حداثة سنه، وكان شقيقه محمد بن الحسين الشريف الرضي يشاركه في هذا التوجه ويذكي نشاطه ويزيد قريحته توهجاً وطموحه ألقاً، وينافسه في الارتقاء نحو قمة المجد، إذ كان الشريف الرضي - الذي يصغر المرتضى بأربع سنوات- بحسب وصف مؤرخيه، عالي الهمة، متطلعاً إلى المعالي وعظائم الأمور، منذ بواكير صباه (المعتوق، ٢٠٠٨م: ٣٥). ومن البديهي للأخوَين اللذَين يتّصفان بالذوق الشعري، أن يكونا على صلة أدبية وثيقة بينهما، ومن يقرأ شعرهما يجد روح الإخوة قد احتلت مساحةً ملحوظةً من ديوانهما حتى نري أنّ عاطفة الأخوة في قصائدهما قضية تستحق الوقوف عندها للكشف عن أسرارها وسَبر أغوارها والوصول إلى كيفية بنائها، وقد يتبادر إلى الذهن فور النظر إلى مصطلح "علاقة الأخوة" أنّها ترتبط فقط بالعلاقات الإيجابية المشتملة على الوداد والتآلف، ولكنها قد تتوتر في بعض الأحيان ويصبح بين الأخوين حواجز وتفقد معاني الأخوة بريقها، فالشاعر مدح أخاه تارة وعاتبه تارة أخرى، ونراه حيناً قد جاشت مراثيه في موت أخيه بالانفعالات الصادقة والعواطف المحرقة، فإنّ هذه الأشعار في وصف الأخ تركز على البنيان العاطفي في الأدب الغنائي بأنواعه المتعددة وهي صورة دقيقة لأخلاقهما، ومرآة صادقة لنفسيتهما الصافية العفيفة. إضافةً إلى ذلك إنّ الانتماء إلى أسرة نبيلة ذات نفسية مفطورة على الرفعة والإباء مما يميز إنتاجهما ويجعلهما في زمرة الأدباء المشهورين الذين تستهوينا أشعارهم، ولكن لكثرة الأشعار التي تجلّت فيها عاطفة الأخوة، اكتفينا في هذا البحث بدراسة مرثية الشريف المرتضى لأخيه الرضي.

أهمية البحث:

ظاهرة الاتساق المعجمي من أهم عناصر التماسك في النصوص، ذلك أنّ تحليل أي نصّ يعتمد في الأساس على التماسك ويجب توافر عناصر الاتساق المعجمي المتمثل في التكرار والتضام في كل قصيدة، لأنّه من عوامل وحدة القصيدة العضوية والترابط بين أجزائها. ومن ثمّ تتّضح أهمية دراسة ظاهرة الاتساق المعجمي في تحقيق تماسك القصيدة من الناحية الشكلية. أما من أبرز وجوه الدراسات الأدبية من الناحية الدلالية وأوفرها حظّاً في فهم القصيدة، الاهتمام بتجليات العاطفة في الشعر، إذ تؤثّر على الفهم الأكمل والأحسن للقصيدة وتأويل دلالاتها. إنّ اتخاذ عاطفة الأخوة للدراسة هو ضربُ عصفورَين بحجرٍ لأنّها على الرغم من الأهمية البالغة في إبراز شخصية الشاعر والتعرف على خلجات نفسه تكون ذات أهمية تربوية وتعبّر عن العلاقات الأسرية النموذجية من عطف الكبير على الصغير، واحترام الصغير للكبير بين الإخوة. فليس معني هذا أن تكون العلاقات دائماً وطيدة، ومن البديهي أن يحدث بعض التوتر والاختلاف مما لا يؤثّر على جوهر العلاقة وأصلها. وقد رغّبنا في اختيار الأخوين الشاعرين "الشريف الرضي" و"الشريف المرتضى" للدراسة، والوقوف على قصائد كانت تموج بروح الأخوة في ديوانهما، وهذه العاطفة جديرة بالدراسة في مرثية الشريف المرتضى لأخيه الرضي. فيجب الاهتمام بالكشف عن هذا الجانب المجهول أو المغمور في هذه القصيدة. كما أنّ ثرائها بالكثير من العناصر الجمالية والعاطفة الصادقة وتشبّع هذه القصيدة بعناصر التماسك النصي في آنٍ واحدٍ، دفعنا إلى الاهتمام بدراسة عناصر الاتساق المعجمي في تجليات روح الأخوة في هذه المرثية.

أهداف البحث

يستهدف هذا البحث دراسة الاتساق المعجمي ودوره في تجليات عاطفة الأخوة بين الأخوين الشاعرين "الشريف المرتضى" و"الشريف الرضي" معتمداً على المنهج الوصفي-التحليلي. ففي الخطوة الأولى يقوم البحث بحشد الأبيات المختارة تحت الموضوعات المتجلّية في الاتساق المعجمي (المتمثل في التكرار والتضام). في الخطوة الثانية، يقوم بتحليل هذه العناصر الاتساقية المعجمية والكشف عن اثرها في إبراز روح الأخوة على وفق مقاييس حدّدها النقاد.

أسئلة البحث:

أما الأسئلة التي تطرح في هذا البحث، فهي:

١- ما آليات المستوي المعجميّ وأثرها في اتساق أبيات رثاء الشريف المرتضى وترابطها؟

٢- فيما تتمثّل فعالية هذه الأدوات والعناصر لتجسيد اتساق الرثاء عند الشاعر؟

٣-كيف أسهم الاتساق المعجميّ في بناء هندسة الرثاء عند الشاعر لإظهار عاطفة الأخوة تجاه أخيه الفقيد؟

خلفية البحث:

لم تكن دراسة الاتساق المعجمي موضوعاً جديداً في الأدب العربي، فقد سبق أن تناوله كثير من الباحثين وقاموا بإفراد الكتب الخاصة به، كما عرضوا للتماسك النصي واتجاهاته إلّا أنّهم لم يولوا دراسة الاتساق المعجمي في تجليات العاطفة العناية التي نالتها الدراسات الاتساقية الأخرى؛ إذ لم يقم أحد منهم بتخصيص دراسة شاملة وافية تتناول دور الاتساق المعجمي في مجال العواطف المنعكسة في النصوص الأدبية.

أما الدراسات التي تمّ انجازها في مجال العواطف الأسرية، فيمكن الإشارة إلى:

الدرهم، عائشة. (٢٠٠٢م). ((العاطفة الأسرية في شعر ابن درّاج القسطلّي)). مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية لجامعة قطر. العدد ١٥. ١٠٩-١٨٣: تقوم الباحثة بتحليل رؤية الشاعر الفكرية والفنية في أشعاره مستندة على إظهار العاطفة الأسرية للشاعر كالعاطفة الأبوية والبنوية.

حنا سعد، إدوارد. (١٣٦٢ هـ.ق). ((عاطفة الأبوة في "أعاصير مغرب")). مجلة الرسالة. العدد ٥٠١. ١١٧-١١٨: بحثت الكاتبة عن كيفية اهتمام عبّاس محمود العقاد بعاطفة الأبوة في ديوان "أعاصير مغرب" متطرّقة إلى الأبيات دون أي تفصيلٍ.

حسنعليان، سمية؛ كمالي رؤيا. (٢٠١٧م). ((دراسة أسلوبية في متعاليات عاطفة البنوة في شعر الشريف المرتضى)). مجلة إضاءات نقدية. العدد ٢٨. ٤٩-٧٨: حاولت الكاتبتان في هذه الدراسة إيضاح كيفية انعكاس هذه العاطفة في مرآة أشعار الشريف المرتضى وتحليل

جوانبها المضمونية ومستوياتها الشكلية (الإيقاعية، والنحوية، والدلالية، والبلاغية)، بتقديم أبيات مختارة منه وبتسليط الضوء على تطابقها بمقاييس العاطفة.

إنّ الشريف الرضي شاعر وأديب وعالم ومتكلم. واهتمّ الباحثون بأشعاره أكثر من أخيه المرتضى؛ وذلك لغلبة شهرة المرتضى كعالم فقيه ومتكلّم على شهرته كأديب وناقد. أما الدراسات التي تمّ انجازها في أشعار الشريف المرتضى، فيمكن الإشارة إلى:

إسماعيل زاده، محمد. (١٤٣٠ هـ.ق). ((بنية مراثي الإمام الحسين عليه السلام ومضامينها في ديون الشريف المرتضى)). مجلة آفاق الحضارة الإسلامية. العدد ٢٣. ٦٠٣-٦٢٤: قام الباحث بتصنيف أبيات مختارة من هذه المراثي في إطار موضوعي ثمّ بادر بتحليل بناء هذه القصائد.

سياوشي، صابرة؛ شكاري مير مولا. (١٣٩٢ هـ.ش). ((شخصيت نمادين امام حسين عليه السلام در شعر شريف مرتضي)). مجلة أدب عربي. العدد ١. سنة ٥. ١٢٥-١٤٦: تطرّق الباحثان إلى كيفية تصوير شخصية الإمام الحسين وميزاتها المتجلّية في شعر الشريف المرتضى، وكذلك قاما بتبيين نوع عواطف الشاعر تجاه الإمام الحسين عليه السلام على أساس المنهج الوصفي-التحليلي.

كمالي، رؤيا؛ حسنعليان سمية. (٢٠١٦م). ((إيوان كسري في شعر البحتري والشريف المرتضى؛ دراسة أسلوبية موازنة)). العدد ٣. ٥٠١-٥٢٧: تناولت هذه المقالة موازنةً بين قصيدتي الشريف المرتضى والبحتري في وصف إيوان كسري معتمدة على المنهج الأسلوبية بمستوياتها الخمسة.

أما بالنسبة إلى دراسة أشعار الشريف الرضي والشريف المرتضى معاً وهي موضع وقوفنا فحري بنا أن نشير إلى: الحسني، سعد داحس ناصر. (٢٠٠٨م). ((الخطاب النقدي عند الشريفين الرضي والمرتضي)). رسالة الماجستير. جامعة واسط: قام الباحث بتبيين المنزلة الأدبية للأخوين الشاعرين من خلال رؤيتهما النقدية والفكرية في آثارهما.

هذه الدراسات أمدتنا ببعض الأفكار والمعلومات الرئيسة التي لا غني عنها وسددتنا في كثير من الآراء وكانت نبراساً أضاء لنا دروبَ البحث المظلمة، وأما ما يتعلق بصدد هذا البحث فهو دراسة الاتساق المعجمي ودوره في تجليات روح الأخوة في مرثية المرتضى لأخيه

الفقيد. فهي الدراسة الأولى التي تختص بهذه الدراسة، فجاءت لتسلط الضوء على جانب لم يعن به الدارسون.

٢- الإطار النظري للبحث:

٢-١- الاتساق المعجمي وأنماطه

لفت علم لغة النص أنظار الباحثين والدارسين في عصرنا الراهن، إذ إن هذا العلم لا يقتصر على دراسة الجملة وتحليلها، بل يجعلها جزءاً من النص ويركز اهتمامه على دراسة النص بوصفه الوحدة اللغوية الكبرى القابلة للتحليل والبحث عن أجزائه، ومن أهمّ المواضيع التي يهتمّ بدراستها ظاهرة التماسك أو الترابط النصي، فـــ ((التماسك مجموعة من العلاقات اللفظية أو الدلالية بين أجزاء النص إذ تلتحم هذه الأجزاء ويتماسك بعضها مع بعض بحيث إذا غاب هذا الالتحام ظهر النص وكأنّه أشلاء ممزقة لا رابط بينهما، وله أهمية كبري في العمل الأدبي بل في كلّ عمليات الاتصال اللغوي، وبدونه لا تسمي الجملة جملة)) (الجراح، ٢٠٠٢م: ٣٧). ويقوم التماسك بدراسة النصوص إمّا على مستوى ظاهر النص من خلال دراسة الظواهر الشكلية أو على مستوى باطن النص من خلال دراسة الجانب الدلالي، والأول يقصد به الاتساق والثاني يطلق عليه مصطلح الانسجام.

ويركز علم لغة النص على دراسة الاتساق لكونه يحقّق التماسك من خلال الترابط الشكلي للنصوص، و((يترتّب على ذلك أن يصبح من الضروري أن تقدّم اللغة بدائل متعددة لسبك عبارات سطحية دون إهدار لترابط المعلومات الكامنة تحتها، هذه المجموعات من البدائل تدلّ المشاركين في الاتصال في الواقع على القسط النشط من المعلومات وهو الذي سيحدث توسيعه وتعديله)) (دي بوجراند، ١٩٩٨م: ٢٩٩)، وتعتمد ظاهرة الاتساق على خمسة محاور في تحليل النص وهي: ((الإحالة (Reference)، الاستبدال (Substitution)، الحذف (Ellipsis)، الربط أو العطف (Conjunction) والاتساق المعجمي (Lexical Cohesion) (Halliday and Hasan، 1980: pp.303-304).

ويعدّ الاتساق المعجمي آخر عنصر من عناصر الاتساق النصي. ((إلّا أنّه مختلف عنها جميعاً، إذ لا يمكن الحديث في هذا المظهر عن العنصر المفترِض والعنصر المفترَض كما هو الأمر سابقًا، ولا عن وسيلة شكلية (نحوية) للربط بين عناصر في النص)) (خطابي، ١٩٩١م:

٢٤). وينقسم الاتساق المعجمي في رأي الباحثين على نوعَين: أ- الاتساق المعجمي التكراري ب- الاتساق المعجمي التضامي.

ويعدّ التكرار شكل من أشكال التكماسك المعجمي الذي تتطلّب إعادة عنصر معجمي، وللروابط التكرارية صور متعددة منها: أ- التكرار الكلي (التكرار التام) وهو نوعان: التكرار مع وحدة المرجع (أي يكون المسمى واحداً) والتكرار مع اختلاف المرجع (أي والمسمى متعدد). ب- التكرار الجزئي، ويقصد به تكرار عنصر سبق استخدامه ولكن في أشكال وفئات مختلفة. جـ- المرادف، د- شبه التكرار: إنّه يقوم في جوهره على التوهم، إذ تفتقد العناصر فيه علاقة التكرار المحض. ويتحقق شبه التكرار غالباً في مستوى التشكل الصوتي وهو أقرب إلى الجناس الناقص. هـ- تكرار لفظ الجملة (عفيفي، ٢٠٠١م: ١٠٦-١١٢).

ويعدّ التضام من وسائل التماسك المعجمي وهو ((توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظراً لارتباطهما بحكم هذه العلاقة)) (خطابي، ١٩٩١م: ٢٥). والعلاقات الحاكمة للتضام متنوعة وقد أسهبت كتب اللغة الحديثة في تفصيلها، وهي: أ- التضاد: فيشتمل على التضاد الحاد (غير متدرج): ميت-حي/ أو التضاد الذي يسمّي (العكس): باع-اشتري/ أو التضاد الاتجاهي: أعلى -أسفل، يصل- يغادر. ب- التنافر: مرتبط بفكرة النفي مثل تضاد كلمات: خروف، فرس، قط، كلب. ويمكن أن يكون مرتبطا بالألوان مثل: أحمر، أخضر و...، علاقة الكل بالجزء، مثل: علاقة الشوارع التي تمثّل جزء من "المدائن"، وعلاقة الجزء بالكل مثل: علاقة اليد بالجسم (عفيفي، ٢٠٠١م: ١١٢-١١٣). هذه العناية البالغة بالتلاحم والترابط بين أجزاء النص، على مستواه الشكلي، تمنح الاتساق المعجمي قيمةً تجدر بالدراسة في تحليل جماليات النصوص.

٢-٢- العاطفة ومقاييسها

تُعدّ العاطفة من العناصر المهمة في العمل الأدبي، فضلا عن الخيال والفكرة والأسلوب، والعاطفة في أبسط تعريف لها هي ((تلك الميول النفسية والنوازع الوجدانية المنبعثة عن الانفعالات الغريزية المماثلة في حياة الناس من كره، وحب، وحزن، وسرور، وانقباض، ورغبة، ورهبة)) (العبيدي، ١٩٥٤م: ٢٤). وتعد من أهم العناصر في تكوين الأدب، إذ إنّ النص الجامد الذي لا يحرك أحاسيس القارئ ومشاعره يبعث في نفسه شيئاً

من الملل؛ لأنّه لم يؤثّر في نفسه، فتحريك المشاعر في نفس القارئ سواء كانت مشاعر الحزن أم الفرح أو شيء من الفكاهة أو حتى الخوف أو القلق هو سبب بقاء النص في مكنونات ذهنه، لهذا يعدّها النقاد نقطة البدء في العمل الأدبي. ((فبالعاطفة يتميز النص الأدبي ويعتبر مرآة تعكس ما يجيش بصدر المبدع من مشاعر وأحاسيس، وما يعتمل في ذهنه من انفعالات وأفكار، وما يحسه من عاطفة تسيطر عليه وتكسوه بحلتها، فيفوح أريجها وعبيرها في كل تعبير يعبره، أو صورة يرسمها، أو معني يبينه، أو لفظة يستخدمها)) (ميدغو، ٢٠١٥م: ٢).

وعلينا أن نشير إلى أبرز المقاييس التي نستعين بها في نقد العاطفة الأدبية وهي: ١. صدق العاطفة أو صحتها؛ هو محور الحكم على العاطفة بالصدق أو الزيف، فان كان هناك داعٍ أصيلٍ هاج انفعالات أصيلة صحيحة تجعل الأدب مؤثراً. أما إذا كان الباعث تافهاً أو خداعاً زائفاً كان الأدب سطحياً لا أثر له يبقي٢. قوة العاطفة أو روعتها؛ ليس المراد بقوة العاطفة ثورتها وحدتها فلقد تكون العاطفة الرزينة الهادئة أبعد أثراً وأقوي إيحاء لعمقها وأصالتها فتكون من ذلك أبقي. ومن الصعب وضع مقاييس على مستوى واحد نقدر به قوة العواطف المختلفة وذلك للاختلاف بين الطبائع في درجة القوة ٣. ثبات العاطفة أو استمرارها؛ المراد به استمرار سلطانها على نفس المنشيء مادام يشعر أو يكتب أو يخطب لتبقي القوة شائعة في فصول الأثر الأدبي كله لا تذهب حرارتها وبهذا يشعر القارئ أو السامع ببقاء المستوي العاطفي على روعته مهما تختلف درجته باختلاف الفقرات والأبيات ٤. تنوع العاطفة أو شمولها؛ يتمثل في تنوعها وسعة مجالها فأعظم الشعراء هم الذين يقدرون على إثارة العواطف المختلفة في نفوسنا بدرجة قوية كالحماسة والحب و... ٥. سمو العاطفة أو درجتها؛ يعتمد النقد الأدبي في هذا الباب على درجة العاطفة من حيث سموها أو ضعتها، ولذا اتفق النقاد على تفاوت درجات العواطف فبعضها أسمى من الآخر وإن كانت كلها جائزة في شريعة الأدب. فهناك من يرى أن العواطف المعنوية أسمى من العواطف الحسية (الشايب، ١٩٩٤م:١٩٠-٢٠٥). إذا سلّطنا الضوء على دراسة العاطفة ومقاييسها في عملٍ أدبي ما، نجد أنّ هناك علاقة وطيدة بين العاطفة الأدبية والترابط النصي. فإنّ الكشف عن آليات الاتساق المعجمي المتمثل في التكرار والتضام يساعدنا على الفهم الأحسن لعاطفة الشاعر تجاه أخيه عبر تناوله لهذه الأدوات مظهراً فيها مقدرة أدبية

باهرة. وانساقت الألفاظ في أكثرها مع الصور الفنية، فزاوج الشاعر بمهارة ودقّة بين البلاغة والألفاظ للكشف عن عاطفته الجياشة وخياله الخصب في رثاء أخيه الفقيد.

٣- نبذة عن حياة الشريف المرتضى

هو أبو القاسم على بن الحسين، العلوي الموسوي البغدادي. ومن ألقابه: علم الهدي، ذو المجدين، السيد، الشريف، المرتضى، علّامة المفسّرين، شيخ لأدباء. ولد في خلافة المطيع بدار أبيه في محلة "باب المحوّل" من الكرخ ببغداد سنة ٣٥٥ في شهر رجب. وتوفي سنة ٤٣٦هـ ببغداد. اشتهر الشريف المرتضى بأنّه عالم أكثر منه شاعراً، فله مؤلفات عديدة. كما أنّ ديوانه من الدواوين الضخمة من حيث عدد الأبيات، وهو أشبه بالبحتري وأبي تمام. وقد نظم في أكثر أغراض الشعر المعروفة في عصره. وأكثر أغراضه في ديوانه هي قصائد المدح (الشريف المرتضى، ١٩٩٧م: ١/ ١١-١٥).

٤- مظاهر العلاقة بين الشريفين الرضي والمرتضي

كان الرضي أصغر من أخيه المرتضى؛ فقد ولد في بغداد سنة ٣٥٩، أي بعد أربع سنوات من ولادة المرتضى، وقال الشعر صغيراً وعمره خمس عشرة سنة، ومنحه بهاء الدولة لقب الشريف. كان الرضي شديد الطموح، حتى إنّه توقع أن تنقل الخلافة إليه. وكان جريئًا قوي الجنان، يحسب الأعيان حسابه. وهكذا نلاحظ أنّ الرضي كان أكثر ميلاً إلى المناصب، في حين أن أخاه المرتضى كان أكثر ميلاً إلى العلم. وكانا على صلة وثيقة بينهما، إلّا أنّهما كانا يختلفان قليلاً، ثم يعودان إلى المودة الصافية. وقد قال ابن بطوطة فيهما: ولم يرَ أخوان مثلهما شرفاً وفَضلاً ونبلاً وجلالةً ورئاسةً وتواداً. وكان المرتضى شديد الحب له، حتى إنّه حين توفّي أخوه الرضي لم يستطع الصلاة عليه جزعًا وحزنًا (المصدر نفسه: ٩-١٠). ولو نظرنا إلى مرثية هذا الشاعر لأخيه، نجدها مع ما لها من آليات التماسك النصي، يفوح كلّ أدوات الاتساق المعجمي فيها عبق العاطفة. فإنّنا سوف نقوم بتحليل هذه المرثية على أساس المعيارَين المذكورَين للاتساق المعجمي (التكرار والتضام). كما ندرس تطابق هذه القصيدة مع المقاييس المعينة للعاطفة؛ وذلك لفهم الصلة بين الاتساق النصي وتجليات عاطفة الأخوة في رثاء الشريف المرتضى لأخيه الفقيد.

٤-١- الرثاء

يعدّ الرثاء من أهم الفنون الشعرية إذ إن الشاعر يعرب به عن مشاعره الحزينة والخلجات النفسية التي تجيش في صدره عندما يمرّ بتجربة مؤلمة تفقده أحد ذويه من الأهل والأقارب والأصدقاء وغيرهم. فالشاعر يبكيه بدموعٍ غزيرةٍ وبقلبٍ ملتهبٍ إذا كان الميتُ مِن أقاربه. والعاطفة أهم خصائص الرثاء عامة ورثاء الأخ خاصة، إذ تتجلي العواطف في القصائد التي تفيض بالحزن والألم والحسرة والدموع؛ لأنّ رابطة الأخوة قوية، إذ تنشأ الإخوة منذ الطفولة فتربطهم عاطفة الحب والمودة، ويكون الأخ سنداً وعوناً لأخيه في الشدائد والملمات، حيث يترك عند الأخ أثراً كبيراً في النفس، وألماً لا يمكن احتماله فيولع الأخ أو الأخت بالبكاء والصراخ والأنين (القاسمي البلوي، ٢٠٠٨م: ٤١).

ومن هنا فقدإ أنشد الشريف المرتضى قصيدة في رثاء أخيه الشريف الرضي، والذي توفي في محرم سنة ٤٠٦هـ، ونوّه بفخر الدولة الذي تولي دفنه، لجزع المرتضى وهربه إلى الكاظمين لئلا يري أخاه يدفن. وقد تميزت هذه القصيدة بصدق العاطفة التي يكنها الشاعر تجاه أخيه الفقيد، لذا تتمثل في أبياتها الفرقة ولوعة المصاب وألم الحادث، كما أنّها مليئة بعناصر الاتساق المعجمي الذي يضفيها من قوة تكشف عن الآلام والأحزان المحرقة التي يصاب بها الشاعر حال فقد أخيه. وسنحاول فيما يأتي شرح وتحليل بعض النماذج التطبيقية من هذه القصيدة مع التركيز على أثر عناصر الاتساق المعجمي في تماسكها.

٤-٤-١- التكرار

التكرار فنٌ بديعيٌ اهتم به البلاغيون وكشفوا عن أغراضه التي منها: ((تأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد أو الإنكار أو التوبيخ أو الاستبعاد أو الغرض من الأغراض)) (إبن حجة الحموي، ٢٠٠٤م: ٢٠٥). وله دورٌ ترابطيٌ في النص؛ إذ إنّ المعاني المختفية في الكلام بحاجة ماسّة إلى المفاهيم والكلمات الظاهرية للكشف عن خفاياه الدلالية وهذا الربط يحدث عبر استخدام التكرار وهو وسيلة من وسائل التماسك النصي. فالتكرار شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي ك (التكرار الكلي أو الجزئي)، أو ورود مرادف له أو شبه مرادف، أو تكرار لفظ جملة في بعض الأعمال الأدبية. ونشير في الجدول التالي إلى شواهد التكرار في القصيدة التي أنشدها الشريف

المرتضى في رثاء أخيه الشريف الرضي:

الكلمة/ العبارة/ الجملة	تكرارها	عدد تكرارها	نوع التكرار	مواضع التكرار
اليوم	يوم	٣	التكرار التام	تُدعى ومدعوّاً ليومِ عَماسٍ مَن كانَ طلقَ الوجهِ يومَ طَلاقةٍ أو فائتٍ يوماً وَقد بَلَغَ المَدى جلدي الرَّواجبَ أيَّ يومِ خِلاسِ
شماسي	شماس	١	التكرار التام	وَاستاقَ شُمَّ الذِكرِ بعدَ شِماسِ
أُسود	فِرناس	١	الترادف	سِربُ الخَميلةِ رِيعَ من فِرناسِ
الهُموم	كرب / غُمّة	١	الترادف	شَرَّدتَ عَنّي كربَها من غُمّةٍ
هادٍ	هدي	١	التكرار الجزئي	وَمصيبةٍ وَلجَت على سُرُجِ الهُدى
حَسوتُها	حاسٍ	١	التكرار الجزئي	فَحَسوتُها في بَعض ما أنا حاسِ
دَمعي	دَمعاً	١	التكرار التام	دَمعاً تحدّرَ أوقدت أنفاسي
	دَمعي	١	التكرار التام	لا تُنكرا مِن فيضِ دمعي عَبرةً
	الدَمع	١	التكرار التام	فالدَمعُ خيرُ مساعدٍ وَمُواسي
	الدموع	١	التكرار التام	ها فانظرا مني الدُّموع غزيرةً
	عَبرة	١	الترادف	لا تُنكرا مِن فيضِ دمعي عَبرةً
مصائب	أصبتَ	٢	التكرار الجزئي	وأصبتَ حين أصبتَ أمَّ الرّاسِ
	مصيبة	١	التكرار الجزئي	وَمصيبةٍ وَلجَت على سُرُجِ الهُدى
	فجعة	١	الترادف	يا للرّجالِ لفَجعَةٍ جَذَمَت يدي
	الرزايا	١	الترادف	وَظننتُه مثلَ الرّزايا قبلَه
أنفاسي	نفس	٤	التكرار التام	يا موتُ كيف أخذتَ نفسي تاركاً نفساً عليها جمّةَ الأنفاسِ بيديك مَحوَ النّفس مِن قِرطاسِ
الفَخر	فخار فخر	٢ ١	التكرار التام التكرار التام	ذاك الذي جَمعَ الفخارَ فخارُهُ مَن مبلغٌ فخرَ الملوك
الرزايا	رزءًا	١	التكرار التام	فإذا بهِ رزءًا عزيزَ الآسي
	رزيتتي	١	التكرار التام	لئن رُزئتُ فقد محوتَ رزيتتي
	رزئتَ	١	التكرار الجزئي	لئن رُزئتُ فقد محوتَ رزيتتي
من كان	من كان	٣	تكرار الجملة	مَن كان مرجوًّا لكلّ حفيظةٍ مَن كان يأبَى فضلُه العالي الذُّرا مَن كانَ طلقَ الوجهِ يومَ طَلاقةٍ

فهذا الحشد الكثير والكمّ الهائل من الألفاظ المتكررة كشف النقاب عن توجه الشاعر إلى تتابع الصفات الحميدة لأخيه. وهناك نماذج كثيرة لاستخدام التكرار وأنواعه في القصيدة، لكننا نكتفي بهذه النماذج التي أشرت إليها سابقاً على سبيل "القليل يدلّ على الكثير". ويمكن تمثيل استخدام التكرار في الجدول التالي للتعرف على النسبة المئوية:

أنواع التكرار	التكرار التام	التكرار الجزئي	الترادف	تكرار الجملة	المجموع
عدد تكرارها	١٨	٦	٥	٣	٣٢
النسبة المئوية	٥٦ %	١٩ %	١٦ %	٩ %	١٠٠ %

والمتتبع للتكرار وأقسامه المتمثلة في التكرار التام، الجزئي، الترادف وتكرار الجملة في هذه القصيدة يكشف لنا عن سلامة ذوق الشاعر وجودة قريحته الشعرية في التعبير عن آلامه وأحزانه، إذ إنّه يستخدم التكرار كخيطٍ يربط بين أبيات القصيدة ويجعلها انعكاساً لعاطفة الأخوة؛ لأنّ مرثية الشريف المرتضى متعددة الأغراض، فإنّها تتألّف من فنون عدة أبرزها: الوصف، الشكوى، الفخر والحكمة. ويلاحظ أنّ مرثيته كلما كانت متعلقة بشخص شديد الصلة به، كأخيه، كلما زادت أبيات الفخر بنسبه ومكانته الرفيعة بين الناس، والملاحظة البارزة أيضاً أنّ المرتضى يتفلسف في مرثيته واعظاً ناصحاً معبّراً فيها عن خواطر الموت وحتميته. فنري أنّ التكرار من أبرز الآليات التي تساعد على التماسك النصي، من خلال ربطه بين هذه الأغراض المتعددة.

وقد احتلّت بعض الألفاظ قسماً كبيراً من أبيات القصيدة؛ وذلك راجع إلى التركيز على الدلالات والإيحاءات العاطفية التي تحملها هذه الألفاظ المتكررة، ومن أكثر الكلمات تكراراً في هذه القصيدة نجد ألفاظ "اليوم والدمع والمصائب" سواء كان التكرار تاماً أم جزئياً أو مرادفاً، إذ يمكن القول من خلال التكرار لهذه الكلمات: إنّ الشاعر يجعل منها تأكيداً على عاطفة واحدة وهي عاطفة الحزن. فالشاعر يكرّر لفظة "اليوم" أربع مرّات:

مَـــن كـــانَ مرجـــوّا لكـــلّ حفيظـــةٍ ... ثُـــدعي ومـــدعوّاً ليـــوم عَمـــاسِ
مَـــن كـــانَ طلـــقَ الوجـــهِ يـــومَ طَلاقـــةٍ ... ومعبّســـاً شَرَســـاً علـــى الأشـــراسِ
أو فائـــتٍ يومـــاً وَقَـــد بَلَـــغَ المَـــدي ... لَهَـــوات ذاك الفـــاغر الفـــرّاسِ
وخَلَســـتَني منـــها وقـــد ضـــمَّت علـــى ... جلـــدي الرَّواجـــبَ أيَّ يـــومِ خِـــلاسِ

(الشريف المرتضى، ١٩٩٧م: ٢/ ١٧١-١٧٤)

إنّ حبّ الشاعر الشديد لأخيه الفقيد هو سبب لتجسيد شعوره بالأسي لتمجيد شخصية المرثي وتأكيد مناقبه وبيان الفراغ الذي تركه بموته. كأنّ الشاعر يحتضن ذكرياته بقلبه وفكره، وحينما يتذكرها يولد هذا التذكر حالة من الفخر والحزن لديه. إنّه يفتخر ويعظّم شأن أخيه الشريف الرضي في الشدائد، كما يتذكر الشاعر أخاه طلق الوجه في أيام السرور. ويستطرد الشاعر في البيت الثالث والرابع بوصف موت الرضي وذاك اليوم الذي وافته المنية فيه. فالألم يكتنف شعره بل نتلمس همومه وما يعانيه من عذاب، وعندما يصف ذاك اليوم، لا يجد ما يحميه من لظي الهموم الحارقة إلّا الهرب إلى برد الأيام الماضية المملوءة بالفخر واللحظات الممتلئة بالفرح، لذلك نراه يستخدم آلية التكرار كي تكون قصيدته متسقة. لكن قيمة هذه الأبيات لا تكمن في استخدام التكرار فحسب، بل في تشبّيهه للموت بالحيوان المفترس الذي غرز أظافره في جلد الشاعر على حين غفلة في صورة استعارية قامت على حذف المشبه به في البيت الأخير وهذا الاندماج بين التكرار والصورة الاستعارية يجعل البيت ذا قيمة فنية عالية.

ونلاحظ أنّ الشاعر نجح بإثبات المجد وعلو الدرجة في أخيه الفقيد، بتكرار لفظة "من" أربع مرات:

مَـن قـادَ شُـوسَ الفَخـرِ بَعـدَ تَقـاعُسٍ	واسـتاقَ شُـمَّ الـذكر بعـدَ شِـماسِ
مَـن كـانَ مَرجـوًّا لكـلِّ حفيظـةٍ	تُـدعَي وَمـدعوّاً لِيـومِ عَمـاسِ
مَـن كـانَ يـأبَي فضـلُه العـالي الـذُّرا	مِـن أن يقـاسَ إلى الـوري بقيـاسِ
مَـن كـانَ طَلـقَ الوجـهِ يـومَ طَلاقـةٍ	ومعبِّسـاً شَرَسًـا علـى الأشـراسِ

(المصدر نفسه:٢/١٧١)

فيبوح لشاعر برثاء الأمجاد بعد فقد أخيه، إذ إنّ لفظة "مَن" تدور حول صفاتٍ خلقيةٍ ساميةٍ؛ تدور حول الذّب عن المحارم والرجولة ومساندة الناس في الشدائد والرحمة على الضعفاء والغضبُ على المقصّرين وما جري مجري ذلك من الفضائل. والشاعر في هذه الأبيات ينقلنا من رثاء شخصيّ إلى رثاء فضائلٍ تجسدت بالفقيد فأصبحت رمزاً له، لذا نرى سيطرت الزمن الماضي على سياق الأبيات عبر تكرار كلمة "كان" ولا مفرّ له من هذا، لأنّه يتحدّث عن مرثيّ فقيد يتصف بكريم خصال وحسن فعال، مؤكدا في الوقت نفسه على

شدة احتياجه لأخيه الفقيد في الزمن الراهن، بوساطة هذه المقارنة الحزينة بين الماضي والحاضر. فإنّه لا يركز على رثاء الفارس القوي العالي الهمة، بل التركيز على فقدان المكارم بعده، ليكون تأثير كلامه أعمّ وأشمل؛ إذ إنّ القارئ والسامع لهذه القصيدة يدرك أنّ الفقيد كان رجلاً ذا صفاتٍ كريمة قد يكون مثيلاً له. والشاعر يؤيد فكرته في هذا البيت، إذ يقرّ بانعدام الفضائل بعده لتجسيد عظم الخسارة التي حلّت به بسبب هذا الفقد:

إنّ الفضـــائلَ بعـــدَ فقـــدِ محمّـــدٍ دَرَسَـــــت معالُمهـــــا مَـــــعَ الأدراس

(المصدر نفسه:٢/١٧١)

ومن أكثر الكلمات تكراراً هي لفظة "الدمع" في الأبيات المصبوغة بالموازنة والمحسنات اللفظية كجناس الاشتقاق في "دمعي" و"الدمع" و"الدموع". كما أنّ الترادف الذي وظّفه الشاعر من خلال لفظة "عبرة" يدلّ على ذخيرة الشاعر المعرفية التي تسهم في تماسك القصيدة وبناء فكرتها الأساس، لذا نلحظ أنّ الشاعر يذرف دموعه غزاراً ويبكي حين تتّقد نار الحزن في قلبه علّه يساعده ويطفيء جمرة الألم فيه، فهذا التلاعب بالألفاظ يساعد الشاعر للتعبير عن المشاعر التي تنطوي عليها نفسه، فالألم الذي حلّ بقلبه وهو يكابده كنارٍ اشتعلت في أحشائه فأحرقتها. فإنّ إلحاحه على كلمة "الدمع" يدلّ على حرقة الحزن التي تعصف بقلبه نتيجة لفراق أخيه الشريف الرضي، فرسم للمتلقي صورة لحالته النفسيّة الحزينة. فهو ذرف أحرّ الدموع وأغلاها في رثاء أخيه الفقيد، كأنّي به يسكب الدمّ بدلاً من الدمع.

وهكذا نري أنّ المرتضى استعان بالتكرار، إذ يكرّر بعض الألفاظ إما بتكرار اللفظة نفسها، أو بالتكرار الجزئي أو بالترادف وهذا الاستخدام يدلّ على مقدرته الشعرية وبلاغته للتعبير عن آلامه وأحزانه.

٤-٤-٢- التضام

وقد وجدنا بعضاً من الباحثين يطلق على التضام مصطلحاً آخرا وهو المصاحبة المعجمية يقول أستاذ "أسامة عبد العزيز جاب الله": المصاحبة المعجمية (colocation) ويراد بها العلاقات القائمة بين الألفاظ في اللغة مثل علاقة التضاد وعلاقة التقابل وعلاقة الجزء بالكل وعلاقة الجزء بالجزء مما يشيع في اللغة (خطابي، ١٩٩١م: ٢٥). وهناك كثير من الذين أطلقوا مصطلح المصاحبة المعجمية. وهو يريد التضام فكلاهما واحد وعناية اللسانيين

بذلك راجعة إلى دوره الهام في تماسك النص وترابطه. ويعدّ التضام من أهمّ الآليات الاتساقية التي استخدمها الشريف المرتضى في قصيدته. موضفا التضاد، أو علاقة التنافر، أو علاقة الكل بالجزء أو علاقة الجزء بالكل، وهذا ما سوف نقف عليه بإذن الله تعالى:

أ- التضاد

التضاد من الفنون البديعية وهو مشتمل على الطباق والتطبيق والتكافؤ، والمطابقة، ويكون ((بالجمع بين متضادّين، أي معنيين متقابلين في الجملة)) (القزويني، د.ت: ٣٤٨). ويعتقد بعض اللغويين أنّ استخدام التضاد يدلّ على قدرة التنوّع في أساليب الكلام. وإنّه يمثّل أسلوباً يكسّر جمود النص بإثارة مفاجأة القارئ بما هو غير متوقع من ألفاظ وعبارات وصور، والتضاد ((كلّما كان حادّاً، كان أكثر قدرة على الربط النصيّ)) (عفيفي، ٢٠٠١: ١١٣).لذا سوف نركز على نماذج التضاد في مرثيته، وأول ما يلفت النظر في مرثيته، مقدمتها التي جاءت معاكسة لمواقف الرثاء والحزن، فالعادة المألوفة في مواقف الرثاء هي البكاء وصبّ الدموع، لكن الشاعر يبدأ قصيدته بوصف حاله في موت أخيه دون البكاء والحنين والألم والحسرة لفقده كعادة الشعراء الآخرين. فختار طريقاً آخر كي تكون مقدمة مرثيته معبّرة أصدق تعبير عن حالته النفسية قبل أن تعبّر أيضاً عن جوّ القصيدة العام. ويمكننا عدّ هذه المقدمة نوعاً من التضاد المعنوي؛ إذ تدلّ على رغبة الشاعر في تحرّره من التقليدية، كما أنّها تدلّ على التضاد اللفظي:

قُـدني إليـك فقـد أمنـتَ شِماسـي وَ كفيـتَ منّـي اليـومَ صـدقَ مِراسـي

(الشريف المرتضى، ١٩٩٧م:٢/١٦٨)

يصف الشاعر حاله لحظة فقد أخيه وكيف بان فيه الإنكسار موظفا التضاد المتمثل في لفظة "شماسي" و"صدق مراسي" ليظهر هذا الإنكسار فقد كان قبل ذلك صعب الانقياد لكنّه بعد موت أخيه أصبح مطواعاً قد دبّ فيه الضعف والوهن، ومن يقرأ القصيدة يستشعر هذا الضعف من خلال التضاد الذي ألقى بضلاله على البيت عاملاً على إغواء القارئ للارتقاء إلى آفاق رحبةٍ واسعةٍ من المعاني التي توحي بها مفردات التضاد لم يكتف الشاعر بإتيان التضاد بل يرينا مقدرتَه العالية على استخدام الاستعارة؛ ((لأنّها كلما كانت داعية إلى التحليق في سماء الخيال، كان وقعها في النفس أشد، ومنزلتها في البلاغة أعلي))

(الهاشمي، ١٣٨٩ش: ٢٦٨). أما الاستعارة المكنية فقد تمثّلت في قوله: " شماسي وصدقَ مراسي" إذ شبّه نفسه بفرسٍ صعبُ الانقياد ثمَ فرسٍ مطواع، وحذف المشبه به وأبقي شيئاً من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية. فنري أنّ هذا الاندماج بين الصورتين التعبيريتين (التضاد والاستعارة المكنية) أضفي على المعاني رونقاً وبهاءً وجعل المفهوم الرئيس للبيت متماسكاً ومترابطاً أكثر فأكثر. كما يقول في موضع آخر:

شـــرّدتَ عنّـــي كربَهـــا مِـــن غُمّـــةٍ وعـــدلتَ لي الإيحـــاشَ بالإينـــاسِ

(الشريف المرتضى، ١٩٩٧م:٢/١٧٤)

يستطرد الشاعر في هذا البيت إلى مدح فخر الدولة الذي تولّي دفن أخيه الرضي قائلاً: إنّك أزلت حزني في موت أخي وطمأنتني بعد وحشة سيطرت على. فيعبّر عن غمّه بالإيحاش وعن إزالة غمّه بالإيناس، وذلك لكسر رتابة تعابيره اللغويّة وإغراء المتلقي ليكون أشدّ فاعلاً في عملية إنتاج المعني. وهكذا يقابل الشاعر في هذا البيت بين لفظين متضادّين؛ اللفظ الأول: الوحشة المهيمنة عليه بعد فقد أخيه، والآخر: إزالة همّه. ((ولهذه الثّنائيات قيمة موسيقية مهمّة، من حيث تشابه أحد عضوي الثنائية مع الآخر في صيغته غالباً، فيما يمكن نسميّه "بالتّناسق الصّيغيّ")) (العبد، ١٩٨٨م: ٧٥و٧٤). وذلك واضح في صيغة "إفعال"؛ إيحاش- إيناس. فالتضاد يكون من أهمّ وأبرز الوسائل البلاغيّة التي يستعين بها الشاعر للمبالغة في الحزن والأسي، وتأكيد الصفات الحميدة لأخيه الفقيد، وعلي إثر ذلك، الانجذاب وإثارة مشاعر المتلقي وعواطفه من خلال حركة التضاد داخل البيت الشعري.

ب- التنافر

يستخدم الشاعر ظاهرة التنافر في قصيدته بقوله:

ولَقيـــتَني متخشّـــعاً لا يرتجَـــي نفعـــي ولا يخشَـــي العشـــيةَ باســـي
أســـري بـــلا هـــادٍ بكـــلّ مُضـــلّةٍ وَأجـــوبُ مَظلمـــةً بـــلا مِقبـــاسِ
وتُـــدرُّ لي نُـــوَبُ الزَّمـــان مَصـــائباً في كـــلّ شـــارقةٍ بـــلا إبســـاسِ
فأنـــا الجـــريحُ بـــلا شِـــفارِ صـــوارم وأنـــا الرّمـــيُّ بغـــيرِ مـــا أقـــواسِ
مـــا دارَ مـــا أَدوَيتُمـــا قلـــبي بـــه مـــن قَبـــلُ في فكـــري ولا إيجاســـي

(الشريف المرتضى، ١٩٩٧م:٢/ ١٦٨-١٧٢)

واجه الشاعر موت أخيه وهذه المواجهة بين عاطفته الجياشة وخياله الفياض وارتسمت على رحاب قصيدته "لا" رافضة، حتى بدت القصيدة مرتكزة على ثنائية الحياة والموت، حيث ظلّت بصخبها وضجيجها، والموت بمفاجأته وسكونه، قطبين تدور حولهما مرثيته صارخة الرفض والإنكار في وجه الموت الذي يحرقه ويحرقه. وهكذا حينما نري الشاعر بعد موت أخيه واهن العزم لا رجاء منه، ضالّاً لا هادي له، جريحاً بلا ضربة سيفٍ ومرمياً بغير قوس ونبلٍ، فنراه صارخاً العدمَ والفناء بعد مصيبة أصابته. ونلاحظ أنّ الشاعر استخدم فكرة النفي من بداية القصيدة حتى نهايتها؛ لأنّ النفيَ مرتبط بالتنافر وذلك لجعل القصيدة متسقة. كما أنّ هذا الاستخدام تعود جذوره إلى الدلالات التي تحتويها هذه الفكرة؛ إذ تعبّر عن خلجات نفس الشاعر وعما يدور في قلبه من الآلام والأحزان، كأنّه يقوم بنفي كلّ شيء بعد موت أخيه ويري نفسه وحيداً. وهذه الفكرة كخيط يربط بداية القصيدة إلى نهايتها ويحقّق التماسك فيها.

ويمكن لنا أن نبيين تفاصيل الرفض في قصيدة ما عبر الطريقتين: ١- الرفض بالصورة: بمعني روية الصورة على خلاف ظاهرها المشاهَدَ بالعين المجرّدة.٢- الرفض بالتأويل: ونعني به الخروج بتفسير مشرِّف لأمور ظاهرها غير باطنها، أو بتقديم الأعذار (خصاونة، د.ت: ٨١٠-٨١٢). فقد تجلّي الرفض في هذه المرثية بشكل لافت، يمكننا الإشارة إلى بعض مصاديقه:

وَمَنَعتُهـــا دمعـــي فلمّـــا لم تَجـــد دمعـــاً تجـــدَّرَ أوقَـــدَت أنفاســـي

(الشريف المرتضى، ١٩٩٧م:٢/ ١٦٩)

فقد سيطرت على الشاعر فكرة "الرفض" فقلّب الأشياء. فإنّه يأتي بالصورة الخارقة للعادة والمألوف، فإذا كان شأن الشاعر المصاب بموت أخيه يستوجب البكاء بحرقة، فإنّ الشاعر "لا" تنطبق عليه هذه الحالة المألوفة، بل يصرخ في وجه الحزن ويمنع دمعه من الهطول. كما أنّ عمله هذا، يعدّ انزياحاً لما هو متعارف لدي القارئ بسبب وجود اللاتلاؤم واللانسجام بين حزن الشاعر وردة فعله هذه. ولنا حق أن نتساءل ما الباعث وراء هذا الاستخدام؟ إذا كان الشاعر هو المصاب بموت أخيه فما جدوي منع نفسه من النواح، أ هذا دليل على عدم الصدق في مشاعره أم هناك أسباب أخرى وراءه؟ لكن الشاعر لا يترك

القارئ حائراً بل يأتي بمفارقة في الشطر الثاني قائلاً بأنّ المصاب أوقد أنفاسي وأحرقها، فيرينا بأنّ المصيبة كبيرة وجرّحت قلبه. فنلاحظه يقوم بكسر أفق توقع القارئ من جهة ويربط بين أجزاء مرثيته كي تدور حول محور عام للقصيدة وهي الحزن والألم. وهكذا حقّق التماسك والترابط النصي هدفه وغايته.

وهناك نموذج آخر من الرفض بالتأويل في هذه المرثية. فالشاعر يقوم بالتأويل في طبيعة الدعاء:

يـــا ســـاقييَّ مِـــنَ المَحـــاذِرِ شَـــربَةً ... مـــا ذُقتُمـــا، لا ذُقتُمـــا يفِ كأســـي
مـــا دارَ مـــا أَدوَيتُمـــا قَلـــبي بـــهِ ... مـــن قبـــلُ يفِ فكـــري وَلا إيجاســـي

(المصدر نفسه:٢/١٧٢)

يرسم لنا الشريف المرتضى صورة معاكسة من الدعاء في هذين البيتين؛ إذ إنّ من عادة الداعين للوشاة والأعداء أن يدعوا عليهم بالفناء والهلاك، لكن الشاعر لا يخبط خبط العَشواء، بل يقوم بالتأويل في الدعاء قائلاً: يا مذيقيَّ الأذى لا سقاكما الله من كأسي. بينما إنّه لا يؤثر عليه قول الشامتين ولا يستمع إلى أقاويلهم مُقرّاً بأنّه لم يؤثر به ما أصبتمانه به في فكره ولا في خاطره. وصحيح أنّ الرفض والنفي يسيطران على مرثية الشاعر وإنّه يقوم بعكس التأويل، لكن يحدث هذا الأمر بفنّ وَوعي وهكذا يحقّق الشاعر الانسجام لقصيدته في البيت الثاني وذلك من خلال إقراره بعدم الاستماع إلى أقوالهم وإلحاحه في مأتمه.

ج- علاقة الجزء بالكل

وذلك في قوله:

هـــا فـــانظرا منّـــي الـــدموعَ غزيـــرةً ... وتعجّبـــا لخشـــوع قلـــبٍ قـــاسِ
لـــو كـــانَ مـــن يرمـــي سَـــوادي باديـــاً ... لتقيتُـــهُ وحميـــتُ منـــه أناســـي
لكنّـــه يخفَـــي علـــى مكائنـــهُ ... وَيـــدِقُّ عَـــن بَصَـــري وَعـــن إحساســـي

(المصدر نفسه:٢/١٧٣)

لو أمعنا النظر في هذين البيتين لوجدنا شدة الحزن التي ألّمت بالشاعر. فنري في هذه الأبيات عمقَ الاعتقاد وصدق اليقين حول المصير المحتوم الذي لابدّ أن يلقاه الشاعر، ولهذا فقد استعمل الشاعر لفظة "سواد" وهي جزء من القلب. بعبارة أخرى، إنّ الشاعر يأتي بلفظة "سواد" و يريد بها "قلبه" قائلاً: لو أنّ أحداً سعي إلى الطعن في فؤادي لتّقيته. فقد جاءت كلمة "سواد" في البيت الثاني لتحيل على ما سبقها من كلام عن مفاجأته وعجزه في دفع سهام المنية، فربطت الكلام بعضه ببعض، وأسهمت في اعتماد آخره على أوله، وهو ما أسهم في تماسكه. فيستعين الشاعر بأداة امتناع لامتناع "لو" التي تفيد الماضي مع الجزم والقطع بانتفائه مفتخراً إلى شجاعته، قائلا لا يمكن لأحد أن يسيطر على بالطعن، لكن هذه الطعنة جاءت مخفية عن بصري وعن إحساسي، مظهرا في هذه الأبيات صراعا نفسيا حادّ يعاني منه ذات الشاعر الذي استطرد إلى الفخر بشجاعته وعمل على سلب الذات من القدرة على الفعل مما يتناسب تماماً وواقع الحال، فالموت قوة مسيطرة على الإنسان وليس لأحد القدرة على دفعها أو الحيلولة دونها، هنا عملية تغييب للذات في استطراد الشاعر وإظهار عجزه أمام سهام المنايا التي لو أفلت منها أحد لكان هذا الفارس المقدام لكن هذا هو السهم المغيب الذي جاء مخفياً وأظهر أمامه الشاعر عجزه وألقي أسلحته. ولهذا فإننا نجد شاعرنا هنا مستسلماً غاية الاستسلام والخضوع ونشمّ رائحة اليأس والقنوط من هذه الأبيات وهي كلمات يشعر ذات الشاعر بحاجته الماسة لها للتهوين من حدة الصراع وللإقرار بحتمية الموت وفناء الوجود، في هذا مواساة للنفس و تخفيف من ألم فقد أخيه وفراقه.

إذا دقّقنا النظر في قصيدة الشاعر، وجدناها مشحونة بالعاطفة. فعاطفة الشاعر تجاه أخيه المرثي صادقةً وقادّةً عميقةً. كما أنّ الرثاء ((يرتكز على العاطفة بل يمكن القول أنّه أصفي أنواع الشعر العاطفي وأكثرها اتساقاً مع النفس الإنسانية؛ لأنّه يستمد مادته من القلب ويعبّر عن الشعور يجد فيه الشاعر متنفساً عما يكنه قلبه من الألم وأشجان يؤطرها بآراء سامية عميقة، وكلما كانت العلاقة بالمرثي متينة جاءت القصائد أكثر قوة وأصدق عاطفة)) (النجار ورائدة مهدي جابر، ٢٠١٢م: ٥٩). ومن الواضح أنّ العاطفة في هذه المرثية متنوّعة ولا تتحرك على وتيرة واحدة وليست محصورة في النواح والبكاء، بل تكون في مقدمة القصيدة هادئة دون ذرف الدموع، وهذه العاطفة كسرت حدود التقاليد المألوفة

للرثاء والتأبين، ثم تشتد شيئاً فشيئاً، حيث يبوح الشاعر بمحاسن أخيه وتشتعل عاطفة الحزن والألم، ثم تعود إلى هدوئها مرّة أخرى لّما يأتي الشاعر بأبيات حكمية حول الموت وهو المصير المحتوم الذي لابدّ أن يواجهه كل بني بشرٍ، ثمّ تشتدّ في تعبيره عن حالته النفسية لفقد أخيه، وتختم القصيدة بالهدوء في استطراده بمدح فخر الدولة لإزالة همّه. كانت عاطفة الشاعر صادقة عميقة وإن تباينت عواطفه في اتّجاهها، فتوجّهت تارةً إلى أخيه المرثيّ وتارةً أخرى إلى فخر الدولة، وكلّ الاتجاهات كانت عاطفته قوية. فبكاء الشاعر في هذه المرثية كبرياء ونشمّ رائحة الصبر من حزنه وبكائه، فعاطفته رافضة تتحدي في وجه الدهر ومصائبه.

النتيجة:

من خلال تتبّعنا لدراسة مرثية الشريف المرتضى وجدناها معجونة بطعم العاطفة الصادقة، إذ حرص الشاعر على إبراز عاطفته الحزينة بأفضل طريق وهذا ما يجعل مظاهر الاتساق المعجمي والصور البيانية والبديعية في مرثيته هذه في خدمة العاطفة. وعلي هذا الأساس نرى كثرة استعماله لعناصر الاتساق المعجمي في قصيدته؛ ذلك لإيمانه الشديد بقدرتها على إثراء مرثيته وإغنائها بالمعاني المتعددة من جهة، ومن جهة أخرى قدرتها على ربط أجزاء القصيدة بعضها ببعض وكسر افق توقع القارئ بإعادة تشكيلها من جديد، فاستخدامه لهذه التقنية يكشف لنا عن رغبته الشديدة على إبراز عاطفته في هيئة جديدة، هيئة تمتاز بالنصية والتماسك. لذلك، كان رثاؤه محكم النسيج تامّ الترابط وهو في أعلي ذروة العاطفة والمستوي الفنيّ عندما تتجه إلى تجسيد مشاعر الراثي وتصوير أحساسيسها في تأبين أخيه الفقيد. إنّ الشريف المرتضى يؤدّي مهمّته من خلال عناصر الاتساق المعجمي وهما التكرار والتضام. فهو قد استخدم التكرار غير مرة في قصيدته بألفاظٍ تفوح أسي وحزناً وهذا ما أسهم في تماسك أجزاء القصيدة والترابط بينها، وتنوع التضام بنوعيه: التضاد والتنافر أسهم أيضا في نسق المرثية. فالشاعر يقوم بالاندماج بين العناصر الاتساقية والصور البيانية والبديعية المتجلية في التشبيهات والاستعارات والجناس، وهذا الاندماج يشكل بنياناً موثراً في نقل العواطف. وأخيرا حري بنا أن نتطابق هذه المرثية مع المقاييس المعينة للعاطفة التي سبق ذكرها:

- تموج هذه المرثية بصدق العاطفة؛ لأنّ المرثيّ هو أخ الشاعر ومن الواضح أن تكشف هذه العاطفة عن الآلام والأحزان المحرقة التي يصاب بها الشاعر حال فقد أخيه.
- تتجلّي قوّة عاطفته في استخدام الصور البيانية والمحسنات البديعية جنباً إلى جنب العناصر الاتساقية لكي يصبح كلامه أشدّ تأثيراً ووقعاً في إثارة الشعور.
- تجري عاطفة الشاعر في مجري الثبات والدوام، وبثّ العواطف الحزينة من بداية القصيدة حتى نهايتها يبين ثبات العاطفة ودوامها.
- تنوّع مستوى العاطفة في هذه المرثية صعوداً وهبوطاً يكشف عن شمولها، فإنّها تارة تبدو هادئة وتارة أخرى تشتد شيئاً فشيئاً. كما لاحظنا أنّ مرثية الشريف المرتضى متعددة الأغراض، فإنّها تتألّف من فنون عدة أبرزها: الوصف، الشكوي، الفخر والحكمة. وهذا التعدد في الأغراض يدلّ على التعدد في عاطفته و تنوعها.
- سموّ العاطفة يتمثّل في تجلّي الأخلاق والفضائل في مرثية الشاعر، إذ يعدّد مناقب المرثيّ، منزلته الأخلاقية والاجتماعية، كما أنّ الشاعر لايدعو على الشامتين بالفناء كعادة الداعيين، وهذا التأويل في الدعاء يرسم صورة جميلة من ذاته النبيلة ويجعل شعره سامياً راقياً.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبتدئ به القرآن الكريم

أولاً: الكتب العربية

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة. (١٩٥٩م). شرح نهج البلاغة. تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم. الجزء الأول. ط١. قم: دار إحياء الكتب العربية.

٢. ابن حجة الحموي، تقي الدين أبوبكر بن على بن عبدالله. (٢٠٠٤م). خزانة الأدب وغاية الأرب. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

٣. الثعالبي النيسابوري، أبو منصور عبدالملك. (١٩٨٣م). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة. الجزء الثالث. ط١.بيروت: دار الكتب العلمية.

٤. الجراح، عبد المهدي هاشم حسين. (٢٠٠٢م). الخطاب وأثره في بناء النص، تطبيق على المعلقات السبع. رسالة دكتوراه غير منشورة. جامعة اليرموك.

٥. خصاونة، سهيل محمد. (د.ت). الموت بين العاطفة والخيال إبن الأنباري يرثي إبن قتيبة. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٩، الجزء ٤، صص ٧٩٩-٨١٦.

٦. خطابي، محمد. (١٩٩١م). لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب. ط١. بيروت: المركز الثقافي العربي.

٧. دي بوجراند، روبرت. (١٩٩٨م). النص والخطاب والإجراء. ترجمة: تمام حسان. ط١. القاهرة: عالم الكتب.

٨. سيد قطب. (٢٠٠٣ م). النقد الأدبي أصوله ومناهجه. القاهرة: دار الشروق.

٩. الشايب، أحمد. (١٩٩٤م). أصول النقد الأدبي. ط١٠. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

١٠. الشريف، محمد موسى. (٢٠٠١م). العاطفة الإيمانية وأهميتها في الأعمال الإسلامية. المملكة العربية السعودية- جدّة: دار الأندلس الخضراء.

١١. العبد، محمّد. (١٩٨٨م). إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي مدخل لغوي أسلوبي. ط١.مصر: دار المعارف.

١٢. العبيدي، رشيد. (١٩٥٤م). الأدب ومذاهب النقد فيه. ط١.بغداد: مطبعة الفيض.

١٣. عفيفي، أحمد. (٢٠٠١م). نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي. ط١. القاهرة: مكتبة زهرا الشرق.

١٤. القاسمي البلوي، عادل حمّاد. (٢٠٠٨م). صورة الأخ في الشعر الجاهلي. رسالة الماجستير. إشراف: الدكتور خليل الرفوع.

١٥. القزويني، جلال الدين. (د.ت). التلخيص في علوم البلاغة. ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي. بيروت: دار الكتاب العربي.

١٦. المشرف، جاسم حسين. (٢٠١٢ م). العاطفة كالماء مقاربة سايكلوجية فنية في العاطفة وتداعياتها. القاهرة: دار الفكر العربي.

١٧. المعتوق، أحمد محمد. (٢٠٠٨ م). الشريف المرتضى حياته، ثقافته، أدبه ونقده. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

١٨. ميدغو، محمد الحاج. (٢٠١٥م). العاطفة والخيال في شعر غنيمي البرناوي دراسة تحليلية لنماذج مختارة. دماترو: قسم الدراسات العربية بجامعة ولاية يوبي.

١٩. النجار، أسعد محمد. (٢٠١٢ م). الرثاء عند شعراء الحلة. مجلة مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية، العدد٢، صص ٥٨-٧٩.

٢٠. الهاشمي، السيد أحمد. (١٣٨٩ش). جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. إشراف: صدقي محمّد جميل. ط٥. طهران: نشر إلهام.

ثانيا: المصادر الانجليزية

21. Halliday, M, A, K and Hasan, R (1980), *Cohesion in English*, Great Britian, Longman.